المبحث العاشر: القدوة الحسنة

أولاً: تعريف القدوة الحسنة:

الأُسـوةُ: والإِسـوةُ كالقِـدوة، والقـدوة: هـي الحالـة التـي يكـون الإنسـان عليهـا فـي اتبـاع غيـره إن حسـناً وإن قبحـاً، وإن سـارّاً وإن ضارّاً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1]، فوصفها بالحسنة[2]، ويقال: فلان قُدوةٌ إذا كان يُقتدى به[3].

والأسوة أو القدوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة: فالأُسوة الحسنة الأسوة بالرسول ﷺ، وأما الأسوة بغيره إذا خالفه فهي أسوة سيئة، كقول المشركين حين دعتهم الرسل للتأسي بهم ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[4].

والمقصود من الأُسوة أو القدوة أن يكون الداعية المسلم قدوةً صالحة فيما يدعو إليه فلا يناقض قولُهُ فِعلَهُ، ولا فعله قوله.

ثانياً: أهمية القدوة الحسنة:

لا شـك أن الداعية إلى الله تعالى بحاجة شديدة جداً إلى تطبيق ما يقول ويدعو إليه حتى يقتدي به الناس؛ ولهذا بيّن ابن القيم رحمه الله تعالى هذه المسألة، وشدّد في عدم التزامها حيث

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١ .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني، ص٥٧٦، مادة (أسا).

(٣) المعجم الوسيط، ٢/٧٢١، ومختار الصحاح، ص٢٢٠ .

(٤) سورة الزخرف، الآية:٢٢،وانظر:تفسير كلام المنان للعلامة عبد الرحمن السعدي، ٦/٢٠٨ .

قال: «علماء السوء جلسوا على أبواب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما يدعون إليه حقاً، كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاّء، وفي الحقيقة قطّاع طرق»[1].

ويمكن إجمال أهمية القدوة العملية في الأمور الآتية:

١ - **إن المثال الحي والقدوة الصالحة يثير في نفس البصير العاقل قدراً** كبيراً من الاستحسان والإعجاب والتقدير والمحبة، فيميل إلى الخير، ويتطلّع إلى مراتب الكمال ويأخذ يحاول، ويعمل مثله حتى يحتل درجة الكمال والاستقامة.

٢ - **إن القدوة الحسنة المتحلِّية بالفضائل تُعطي الآخرين** قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل والأعمال الصالحة من الأمور الممكنة التي هي في متناول القدرات الإنسانية، وشاهد الحال أقوى من شاهد المقال[2].

٣ - **إن الأتباع والمدعوّين الذين يربّيهم ويدعوهم الداعية** ينظرون إليه نظرة دقيقة دون أن يعلم هو أنه تحت رقابة مجهرية، فرُبّ عمل يقوم به من المخالفات لا يلقي له بالاً يكون في نظرهم من الكبائر؛ لأنهم يعدُّونه قدوة لهم[3]، وقد يراه الجاهل على عملٍ غير مشروع أو محرم فيظن أنه على حق، ولا شك أن الأمر خطير، والنجاة من ذلك أن يعمل الدعاة بالعلم، وليتقوا الله تعالى.

---

(١) الفوائد، ص١١٢ .

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية للميداني، ١/٢١٤، و٢١٥ .

(٣) انظر: المصفّى من صفات الدعاة لعبد الحميد البلالي، ١/٢١ .

٤ - **إن مستويات الفهم للكلام عند الناس تتفاوت،** ولكن الجميع يستوون أمام الرؤية بالعين المجردة، وذلك أيسر في إيصال المفاهيم التي يريد الداعية إيصالها للناس المقتدين به، ومما يدل على ذلك أن البخاري بوّب باباً قال فيه: «**باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ**»، ثم ساق الحديث: «**اتخذ النبي ﷺ خاتماً من ذهب فاتخذ الناس خواتيم من ذهب**» فقال النبي ﷺ: «**إني اتخذت خاتماً من ذهب**» فنبذه وقال: «**إني لن ألبسه أبداً**»، فنبذ الناس خواتيمهم[١].

قال ابن بطّال: «فدلّ ذلك على أن الفعل أبلغ من القول»[٢].

ولهذا أمثلة كثيرة؛ فإنه خلع خاتمه فخلعوا خواتيمهم في هذه القصة، ونزع نعله في الصلاة حينما أخبره جبريل أن فيهما أذىً فنزعوا، ولَمّا أمرهم عام الحديبية بالتحلّل وتأخّروا عن المبادرة رجاء أن يأذن لهم في القتال وأن ينصروا فيكملوا عمرتهم، قالت له أم سلمة: اخرج إليهم واذبح واحلق ففعل فتابعوه مسرعين[٣]، فدلّ ذلك كله على أهمية القدوة وعظيم مكانتها.

٥ - **إن النبي ﷺ قد حذّر الدعاة من المخالفة لِمَا يقولون،** فبيّن ﷺ في الحديث الشريف حال الدعاة الذين يأمرون الناس وينهونهم وينسون أنفسهم، قال: «**أتيت ليلة أُسري بي على قومٍ تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلَّما قرضت وفت، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: خطباءُ أمتكَ الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون**

(١) البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ، برقم ٧٢٩٨.
(٢) فتح الباري، ١٣/٢٧٥ .
(٣) انظر فتح الباري، ١٣/٢٧٥ .

كتاب الله ولا يعملون به»[1].

ولا يقتصر الخطر على الداعية وعلى دينه، بل يتعدّى إلى كل من يدعوهم.

وإن مما يذكر في هذا الشأن، أن انحراف الداعية وخروجه عن النهج الصحيح هو في الوقت نفسه سببٌ في انحراف كل من تأثر به أو سمع منه، وما ذلك إلا بسبب أن سلوك الداعية وتصرفاته كلها مرصودة من قبل الناس، وجميع أفعاله وأقواله موضوعة تحت المجهر.

فليحتطِ الداعية لهذا الأمر المهم، ويراقب أفعاله وأقواله.. وليرِ الله تعالى من نفسه خيراً.

٦ - **إن جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من أولهم** إلى آخرهم كانوا قُدوةً حسنةً لأقوامهم، وهذا يدل على عِظَم وأهمية القدوة الحسنة؛ ولهذا قال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[2].

٧ - **إن الناس كما ينظرون إلى الداعية في أعماله وتصرفاته** ينظرون إلى أسرته وأهل بيته، وإلى مدى تطبيقهم لِمَا يقول، وهذا يفيد ويبيّن أن الداعية كما يجب عليه أن يكون قدوة في نفسه يجب عليه أن يُقوِّم أهل بيته وأسرته، ويلزمهم بما يأمر به الناس، ويدعوهم إليه؛ ولهذه الأهمية

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان عن أنس ﷺ، ٢/ ٢٨٣، وأحمد، ٣٢/ ١٢٠، ٢٣١، ٢٣٩، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ٢/٩٦، برقم ١٢٨ .

(٢) سورة هود، الآية: ٨٨ .

كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء، جمع أهله فقال: «إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة »[1].

ولقد تنبه لخطورة هذا الأمر الفقيه أبو المنصور الدمياطي فأخذ يحذر القدوات قائلاً:

أيهـــا العـــالِم إيـــاك الزلـــل ... واحذرِ الهفوةَ، فالخطبُ جلَـــلْ
هفـــوة العـــالِم مســـتعظمة ... إن هفا أصبح في الخلق مَثَـــلْ
وعلـــى زلَتـــه عمـــدتهم ... فبها يحـــتجّ مـــن أخطـــأ وزَلّ
لا تقلْ يســـتر علمـــي زلَّتـــي ... بلْ بها يحصل في العلم الخلَـــلْ
إن تكـــن عنـــدك مســـتحقرةً ... فهي عند الله والنـــاس جَبَـــلْ
فإذا الشـــمس بـــدت كاســـفةً ... وجلُ الخلقُ لهـــا كـــل الوَجَـــلْ
وترامـــت نحوهـــا أبصـــارُهم ... في انزعاجٍ واضطرابٍ وزجَـــلْ
وسرى النقص لهم من نقصها ... فغدت مُظلمـــةً منهـــا السُّـــبُلْ
وكـــذا العـــالِم فـــي زلَّتـــه ... يفـــتن العـــالم طُـــرّاً ويضِـــلّ
يُقتدى منـــه بمـــا فيـــه هفـــا ... لا بما استعصم فيـــه واســـتَقَلّ
فهو ملحُ الأرض ما يصـــلحه ... إن بدا فيـــه فســـادٌ وخَلَـــلْ[2]

ثالثاً: وجوب القدوة الحسنة:

من الأخلاق والأوصاف التي ينبغي، بل يجب أن يكون عليها

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري، ٦٨/٢، والكامل في التاريخ لابن الأثير، ٣١/٣ .
(٢) المدخل، لابن الحاج، ١٠٧/١، ١٠٨، وانظر: المصفّى من صفات الدعاة لعبد الحميد البلالي، ٢١/١ .

الداعية، العمل بدعوته، وأن يكون قدوة صالحة فيما يدعو إليه، ليس ممن يدعو إلى شيء ثم يتركه، أو ينهى عنه ثم يرتكبه، هذه حال الخاسرين نعوذ بالله من ذلك، أما المؤمنون الرابحون فهم دعاةالحق يعملون به وينشطون فيه، ويسارعون إليه، ويبتعدون عما ينهون عنه، قال الله - جل وعلا -: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾[1]، وقال ﷻ: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[2].

هذه الآية العظيمة تُبيّن لنا أن الداعي إلى الله ﷻ ينبغي أن يكون ذا عمل صالح يدعو إلى الله بلسانه، ويدعو إلى الله بأفعاله أيضاً؛ ولهذا قال بعده: ﴿**وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾، فالداعي إلى الله ﷻ يكون داعية باللسان، وداعية بالعمل، ولا أحسن قولاً من هذا الصنف من الناس، هم الدعاة إلى الله بأقوالهم الطيبة، وهم يوجّهون الناس بالأقوال والأعمال فصاروا قدوة صالحة في أقوالهم وأعمالهم وسيرتهم[3].

وهكذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام، دعاة إلى الله بالأقوال والأعمال، والسيرة وكثير من المدعوين ينتفعون بالسيرة أكثر مما ينتفعون بالأقوال، ولا سيما العامّة وأرباب العلوم القاصرة؛ فإنهم ينتفعون من السيرة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، ما لا ينتفعون من الأقوال التي قد لا يفهمونها، فالداعي إلى الله ﷻ من أهمّ المهمات في حقه أن يكون ذا سيرة حسنة، وذا عمل صالح، وذا خلق

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢-٣ .

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣ .

(٣) فتاوى سماحة الشيخ ابن باز، ١/٣٥٠ .

فاضل حتى يُقتدى بأفعاله وأقواله[1].

ولهذا قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾، الآية. وهذه الآية الكريمة تفيد أن الدعاة إلى الله ﷻ هم أحسن الناس قولاً إذا حققوا قولهم بالعمل الصالح، والتزموا الإسلام عن إيمان ومحبة وفرح بهذه النعمة العظيمة، وبذلك يتأثّر الناس بدعوتهم، وينتفعون بها ويحبونهم عليها، بخلاف الدعاة الذين يقولون ما لا يفعلون، فإنهم لا حظّ لهم من هذا الثناء العاطر، ولا أثر لدعوتهم في المجتمع، إنما نصيبهم في هذه الدعوة المقت من الله - سبحانه - والسب من الناس، والإعراض عنهم والتنفير من دعوتهم.

قال الله ﷻ موبّخاً اليهود: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾[2]، فأرشد - سبحانه - في هذه الآية إلى أن مخالفة الداعي لِمَا يقول أمر يخالف العقل، كما أنه يخالف الشرع، فكيف يرضى بذلك من له دين أو عقل[3].

وصحّ عن النبي، ﷺ أنه قال: «**يُؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور فيها كما يدور الحمار بالرّحى، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون له يا فلان ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[4].

---

(١) مجموع فتاوى ابن باز، ٣/١١٠ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤ .

(٣) انظر: فتاوى ابن باز، ٢/٣٤٣ .

(٤) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد: البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، برقم ٣٢٦٧، ومسلم، كتاب الزهد، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله =

هذه حال من دعا إلى الله وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم خالف قوله فعله وفعله قوله، نعوذ بالله من ذلك، فمن أهمّ الأخلاق ومن أعظمها في حق الداعية، أن يعمل بما يدعو إليه، وأن ينتهي عما ينهى عنه، وأن يكون ذا خلق فاضل، وسيرة حميدة، وصبر ومصابرة، وإخلاص في دعوته[1].

فأنت يا عبد الله في أشدّ الحاجة إلى تقوى ربك ولزومها والاستقامة عليها ولو جرى من الامتحان، ولو أصابك من الأذى أو الاستهزاء من أعداء الله، أو من الفسقة والمجرمين فلا تبالِ، واذكر الرسل عليهم الصلاة والسلام، واذكر أتباعهم بإحسان، فقد أوذوا واستهزئ بهم وسخر بهم، ولكنهم صبروا فكانت لهم العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة[2].

والمؤمن الداعي إلى الله قويّ الإيمان، البصير بأمر الله يصرّح بحق الله، وينشط في الدعوة إلى الله، ويعمل بما يدعو إليه، ويحذر ما ينهى عنه، فيكون من أسرع الناس إلى ما يدعو إليه، ومن أبعد الناس عن كل ما ينهى عنه، ومع ذلك يصرّح بأنه مسلم، وبأنه يدعو إلى الإسلام، ويغتبط بذلك ويفرح به كما قال ﷻ: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[3]، فالفرح برحمة الله فرح الاغتباط، فرح السرور، أمر مشروع[4].

= وينهى عن المنكر ويفعله، برقم ٢٩٨٩ .

(١) انظر: فتاوى سماحة الشيخ ابن باز، ٣٥١/١ .

(٢) انظر: المرجع السابق، ٢٩٠/٢ .

(٣) سورة يونس، الآية: ٥٨ .

(٤) انظر: فتاوى ابن باز، ٣٣٨/١ .

وينبغي للدعاة إلى الله تعالى: أن يُعنوا عناية تامة بالقرآن الكريم تلاوة وتدبراً وتعقلاً، وعملاً بالسنة المطهرة؛ لأنها الأصل الثاني، ولأنها المفسِّرة لكتاب الله، كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١)، وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢).

والعلم هو ما قاله الله في كتابه الكريم، أو قاله الرسول ﷺ في سنته الصحيحة، وذلك بأن يعتني الداعية بالقرآن الكريم والسنة المطهرة؛ ليعرف ما أمر الله به وما نهى الله عنه، ويعرف طريقة الرسول ﷺ في دعوته إلى الله وإنكاره المنكر وطريقة أصحابه رضي الله عنهم (٣).

فجدير بأهل العلم من الدعاة والمدرسين والطلبة، جدير بهم أن يعنوا بكتاب الله ﷻ حتى يستقيموا عليه، وحتى يكون لهم خلقاً ومنهجاً يسيرون عليه أينما كانوا، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (٤)، فهو الهادي إلى الطريقة التي هي أقوم الطرق وأهدى السبل، وهل هناك هدف للمؤمن أعظم من أن يكون على أهدى السبل وأقومها.

فعلى جميع أهل العلم وطلبته أن يُعنوا بهذا الخُلُق، وأن يُقبلوا على كتاب الله قراءةً، وتدبُّراً، وتعقّلاً، وعملاً، يقول ﷻ: ﴿كِتَابٌ

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤ .
(٢) سورة النحل، الآية: ٦٤ .
(٣) انظر: فتاوى ابن باز، ١٧١/٤، ٢٣٢ .
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٩ .

﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[1].

أصحاب العقول الصحيحة الذين وهبهم الله التمييز بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال، ومن أراد هذا الخلق العظيم فعليه بالإقبال على كتاب الله ﷻ والعناية به: تلاوةً، وتدبراً، وتعقلاً، ومذاكرة بينه وبين زملائه، وسؤالاً لأهل العلم عمَّا أشكل عليه من الاستفادة من كتب التفسير المعتمدة، ومع العناية بالسنة النبوية؛ لأنها تفسر القرآن وتدل عليه، حتى يسير على هذا النهج القويم، وحتى يكون من أهل كتاب الله قراءة وتدبراً وعملاً[2].

(١) سورة ص، الآية: ٢٩ .

(٢) انظر: مجموع فتاوى سماحة الشيخ ابن باز، ٧٩/٤، ٨٠ .